طرائف وقصص

ليلة عيد الميلاد

للكاتب الفرنسي أندريه سوروا

بقلم الأستاذ حسن نديم

كتب إلى الجنرال برامبل يدعوني إلى قضاء عطلة عيد الميلاد في قريته وأردف يقول : إنني لم أدع هذا العام سوى اللورد تيلوك شقيق زوجتي والسيدة قرينته ، ولا أحسب السامر سيكون بهيجا بالقدر الذي تنشده فأسألك المعذرة . وعلى كل حال إذا كنت لاتبرم بحياة العزلة ولا تخشى شتاء إنجلترا فتفضل بالمجيء وسيسعدنا لقاؤك والترحيب بك والتحدث معا عن الأيام الخوالي وطيبها .

كنت أعلم أن هؤلاء الأصدقاء قد رزئوا في غضون العام الماضي بفقد ابنة لهم في الربيع الثامن عشر ماتت على إثر سقطتها من صهوة جواد أثناء الصيد فرثيت لحالهم وتأثرت لمصابهم. ولما كنت توا قا الى رؤيتهم لأواسيهم وأسرى عنهم فقد قبلت الدعوة .

شعرت بادئ الأمر بالهيبة من اللورد تيلوك وزوجته؛ غير أنني سرعان ما أنست إلى صحبتهما عندما عرفتهما . كان في مقدور مضيق الجنرال برامبل أن يظل صامتا مدة ثلاث ساعات لايفوه خلالها بكلمة واحدة وهو جالس يدخن غليونه على مقربة من نار المدفأة وكذلك كانت حال زوجته تجلس في صمت وهدوء تتعمل أو تطرز . أما اللورد تيلوك فهو ثرثار لطيف ، عمل سفيرا لبلاده في عدة أقطار ويدل حديثه على أنه شاهد حقيقة تلك الأقطار على غير ما أثر عن أنداده من السفراء ، وكانت زوجته على دمامة خلقها تفيض ظرفا وخفة وإن ارتدت من الثياب أرخصها مما لايتفق ومكانتها في المجتمع .

لقد خلف الدمع والأسى آثاره واضحة على وجه السيدة برامبل غير أنها لم تحدثني عن فجيعتها ومصابها ، اللهم إلا في أول مساء عندما صعدت برفقتها إلى جناح النوم فقد توقفت لحظة أمام الحجرة السابقة لترفتي وقالت لي : كانت هذه غرفتها ... ثم استدارت ومضت في سبيلها .

قضينا سهرة عيد الميلاد في قاعة المكتبة على مقربة من مدفأة تندلع منها ألسنة اللهب . لم يكن يضيء تلك القاعة سوى عدد من الشموع ، فكان المرء يلمح في ضوء القمر خلال زجاج النافذة منظر الحديقة وقد ابيض أديمها وغطتها الثلوج . كان الجنرال برامبل يدخن غليونه وزوجه تعمل بإبرها عندما بدأ اللورد تيلوك يتحدث عن ليلة عيد الميلاد .

قال اللورد : منذ خمسين عاما كان كثير من فلاحي مقاطعتي يعتقدون أن الحيوانات ينطلق لسانها في ليلة الميلاد فتنطق كالبشر سواء بسواء . وأذكر أنني سمعت مرضعتي تقص حكاية عن حارس مزرعة كان يأبى أن يصدق هذه الخرافة . اختبأ هذا الحارس داخل حظيرة الخيول في تلك الليلة ليتحقق من صحة الأسطورة، حتى إذا مادقت الأجراس مؤذنة بانتصاف الليل رأى الحارس أحد الجياد يميل برأسه على رفيقه ويقول له : سنساق إلى مهمة شاقة بعد ثمانية أيام. فيجيبه الآخر : نعم ولا تنس أن الحارس ثقيل الوزن فيعقب الجواد الأول : حقا إنه ثقيل الوزن والطريق إلى المقابر وعر . ومات حارس المزرعة بعد ثمانية أيام ! قال الجنرال برامبل : إن هذا لعمري هراء . وهل كانت مرضعتك تعرف حقا هذا الرجل ؟

فأجاب اللورد تيلوك : إنها تعرفه حق المعرفة ياسيدي وحسبك أن تعلم أنه أخوها .

لبث محدثنا صامتا زمنا وأخذت أتأمل ألسنة اللهب المندلعة وهي تزمزم في الأتون كما تدوي الأعلام في مهب العاصفة . لم يبد الجنرال حراكا أما زوجه فكانت تطرز خطوطا بارزة ذات ألوان زاهية على قطعة من القماش . ثم

استأنف اللورد حديثه قائلا :

وفى السويد كثيرا ما رأيت الفلاحين فى قرية «داليكارلى» يعدون العشاء للأرواح فى ليلة عيد الميلاد ، إذ يعتقدون هنالك أن الموتى يعودون فى تلك الليلة إلى الدور التى كانت مسرحا لحياتهم . ولهذا يشعل أهل القرية مساء قبل أن يفترقوا نارا كبيرة من لهب الشموع اللدنة ويضعون على المائدة غطاء ناصع البياض وينظفون المقاعد ثم يخلون المكان للأطياف حتى إذا ما تنفس صبح اليوم التالى وجد القوم أن شيئا من الوحل قد تناثر على الأرض وأن الآنية والأكواب قد تحركت من أماكنها وأن الجو يعبق برائحة غريبة .

فقال الجنرال بصوت خفيض : وذلك أيضا لنو وهراء

أيقنت عند ذاك أن محدثنا يفتقر إلى الكياسة والفطنة وتأملت السيدة برامبل فإذا هى ساكنة وادعة ؛ بيد أنى رأيت أن أغير موضوع الحديث فقلت : أما أنا فأرى فى ليلة عيد الميلاد نفس ما رآه واعتقده شكسبير .. أتذكرون ما قاله فى هذا الصدد ؟

« ليلة لا تجرؤ الأرواح فيها أن تعصف فى الفضاء . الجن مكتوف اليدين ، والساحرة لا ينفع لها سحر ، والليل ساج لا يغشاه أنين ولا شكوى »

فقالت الليدى تيلوك فى لهجة ملؤها الجد والإصرار : أما نحن فنعتقد أن شكسبير قد خانه الصواب فيما ذهب إليه . هل لك يا عزيزى إدوار أن تقص علينا ذلك الحادث الذى وقع لك فى قصر تيلوك ؟

فهتفت قائلا : يسعدنى جدا أن أستمع إلى هذه المغامرة

حسنا — قال اللورد تيلوك — منذ خمسة أعوام كاملات أى فى ليلة عيد الميلاد سنة ١٩٢٠ أحسست بصداع خفيف . ولما كان الجو جميلا ينشى برودته جفاف فقد رغبت فى المسير قليلا فى الهواء الطلق . كان الليل قد انتصف أو كاد عندما غادرت منزلى ومشيت بضع خطوات حتى إذا ما جاوزت سور المنتزه سلكت الدرب الصغير الذى يحف به من على الجانبين سياج من الحسك الطويل ، وكان يضيئه فى تلك الليلة بدر مكتمل وسماء وشتها النجوم . كنت قد قطعت فى سيرى مسافة تبلغ نصف ميل عندما لمحت على بعد فوق الصقيع الأبيض آثارا قاتمة عبر الدرب . اقتربت من هذه الآثار فرأيت لفرط دهشتى أنها خيط دماء . طفقت أبحث عن مصدر هذا السيل الرفيع فوجدت أن السياج الحسكى ينحرف فى هذا الموضع فينشئ مع الدرب زاوية .. وأن جسدا مستلقيا دون حراك قد قبع فى ركن الزاوية

اقتربت من المكان وحدقت النظر فيه فإذا بى أمام جثة قتيل فعدت أدراجى راكضا إلى الدار وناديت خدمى . أرسلت بعضهم لإخطار السلطات وأمرت الآخرين أن يحملوا مشاعلهم ويتبعونى . سلكنا نفس الدرب الذى أتيت منه ومشينا مدة طويلة بل خيل إلى أنها طويلة جدا . ولكننا لم نر شيئا وانبريت أبحث عن الأثر الدامى دون جدوى . وأخيرا وبعد ما قطعنا ميلين على الأقل قلت لمن حولى : هذا لعمرى مستحيل ، فلم أبتعد بهذا القدر ولا بد أننا تخطينا المكان فلنعد

ذرعنا الدرب مرة ثانية وقلت لمن معى إنه ليس من العسير عليهم أن يهتدوا إلى المكان . فهو فى البقعة التى ينحرف فيها السياج وينشئ مع الدرب زاوية . غير أن أحدا من الخدم لم يتذكر أنه رأى الموضع الذى وصفته . وسرنا حذاء السياج من جديد وانطلقنا إلى أبعد ما استطعنا أن ننطلق فوجدنا السياج مستقيما لا انحراف فيه

وأمسك اللورد تيلوك عن الكلام لحظة . كانت الثلوج تتساقط فى الخارج وئيدا ، وكنا لا نسمع فى جوف هذا السكون الموحش سوى خشخشة الخيوط الحريرية فى قطعة القماش وزفرة النيران المستعرة فى الدفأة

سألت محدثى : ربما كنت إذ ذاك واقعا تحت تأثير نوبة من الهلوسة ؟!

استدار الجنرال برامبل نحوى وحدق فى طويلا وإن ظل ساكنا لا ينبس ببنت شفة ، وقال اللورد تيلوك وكأنما يرد على استفسارى : لقد لبثت بالفعل طويلا وأنا أعتقد

ما تقول ، فقد استجوبت الخدم والحارة والجيران ولم أتوصل إلى شيء ، فلم ترتكب أية جريمة فى تلك الليلة فى طريق قصرى ولم يحدث فى هذه النقطة ما يكدر الصفو . وبعد انقضاء أربعة أعوام على هذا الحادث ، وكنت قد سلمت بأن لوثة من الهلوسة قد أتلفت حواسى فى تلك الليلة فتهيأت لى هذه الجريمة ، جاءنى خطاب من صديق لى يمتهن التنقيب عن الآثار ويعنى بدراستها ، لقد سررت بهذا الخطاب أيما سرور وإليكم ما جاء فيه :

عزيزى اللورد تيلوك

بينما كنت أجرى أبحاثى هذا الصباح فى المتحف البريطانى تكشفت لى حقيقة هامة تتصل بقصة غريبة كنت قد رويتها لى فى آخر عطلة أسبوعية سعدت بقضائها فى ضيعتك . كنت أتصفح بعض الصحف المحلية القديمة التى كانت تصدر فى مقاطعتك لاستيفاء بعض الأبحاث فقرأت الخبر التالى :

« فى يوم ٢٤ ديسمبر ١٨٢٠ وعلى بعدستمائة ياردة من قصر آل تيلوك اغتال بعض قطاع الطرق السير جون لامى من وجهاء الكاثوليك بينما كان يسير بمفرده لحضور قداس نصف الليل . كان هؤلاء الأشقياء يتربصون بالمارة مختبئين خلف السياج الذى ينحرف فى عدة مواضع فيحدث مع الدرب زوايا ، وهنالك أيضا أخفوا الجثة بعد ما جردوا صاحبها مما كان يحمل من نقود . وعلى أثر هذا الحادث أمر سيد المقاطعة بإزالة هذه الزوايا ، ومن هذا التاريخ أصبح السياج الذى يحاذى الدرب مستقيما لا التواء فيه »

قالت الليدى تيلوك : آه لو كنتم معى ورأيتم آيات الفوز والابتهاج مرتسمة على وجه إدوار وهو يتلو على هذا الخطاب

فأجاب الجنرال براميل فى جد ووقار : هذا جد مفهوم وأمنت زوجه بصدق على عبارته

حدقت فيهم جميعا فى دهش وقلت :

— لماذا ؟ أتعتقدون أن الميت قد بعث فى مكان الحادث لمناسبة الذكرى المئوية لمصرعه ؟

فأجابنى اللورد فى قلق وضجر : وهل تعتقد يا صاح بغير ذلك ؟

نظر إلى الجنرال براميل وزوجه نظرة كلها استنكار ولوم ، فسكت على مضض ، وأيقنت أن قصتى الجواد الناطق وغذاء الأطياف لا بد قد وجدتا من هذه العقول الساذجة تصديقا واقتناعا . فهضت واستأذنت فى الذهاب إلى المخدع

كانت بغرفتى مدفأة موقدة تضطرم فيها نار وقودها خشب الصنوبر أشبعت جو المخدع بدخان شفاف بينما اكتست النوافذ من الخارج بطبقة من الثلج الرخو كندوف القطن . أطفأت شموع الغرفة ، فصارت ألسنة اللهب المتراقص فى المدفأة تشيع وحدها الحرارة فى ضباب دافئ وضئ ، وشعرت بقيظ لم أستطع معه النعاس ، وأخذت تجول بخاطرى قصص غريبة . وبعد هنيهة ، سمعت فى الغرفة المجاورة دقات ساعة صداحة تعلن انتصاف الليل . كنت متعبا مضطرب الأعصاب بعض الشيء .. غير أنى شعرت فى الوقت ذاته بارتياح إلى ما أسابنى من أرق .. وأحسست كأنما حلت بغرفتى روح وادعة تنفث فيها جوا من العذوبة والصفاء . سمعت الصداحة تدق جميع ساعات الليل إلى أن بانت تباشير الفجر فنمت

نزلت فى الصباح لتناول الإفطار متأخرا بعض الوقت فسألتنى السيدة براميل — وهى واقفة أمام المائدة الزاخرة بألوان المطعام فى قاعة المآدب — كيف قضيت ليلتى

— إن شئت الصراحة يا سيدتى أخبرك بأنى نمت من الليل أقله ، غير أن السهاد لم يضرنى فى شيء ، فقد كان لى من رنين ساعتكم الصداحة خير رفيق أنيس

فانتفض الجنرال بغتة وقال : ماذا ؟ أتقول إنك سمعت دقات الساعة ؟

ثم صاح محدقا فى زوجته : هل فهمت يا إديث ؟

أجبت الجنرال بالإيجاب وأنا دهش من هذه اللهجة

العنيفة التي نطق بها عبارته الأخيرة وكانت أطول عبارة سمعتها تخرج من فيه . وعندئذ حدقت في السيدة براميل وقالت في تأثر عميق وعيناها مغرورقتان بالدمع : يجدر بي يا سيدي أن أوضح لك حليـة الأمر . هناك في الحجرة المجاورة لمخدعك ساعة صداحة أهديت إلى ابنتي وهي طفلة فكانت تحبها كثيرا وتملؤها بنفسها كل ليلة . ومنذ قضت عزيزتنا لم يمسها أحد ، وآلينا على أنفسنا ألا يمسها أحد ، وكنا نظن أن تغم تلك الساعة قد سكن إلى الأبد غير أن ليلة الأمس كانت — كما ترى يا سيدي العزيز — ليلة عيد الميلاد

مسز نريم

المملكة العربية السعودية

تسهم في إحياء اللغة العربية ، وتنشر لأول مرة على يد ونفقة أحد أبنائها المخلصين الشيخ

محمد سرور الصبان

الوثيقة التاريخية لمعجم « صحاح الجوهري » السماة

تهذيب الصحاح

للإمام محمود بن أحمد الزنجاني المتوفى سنة ٦٥٦ هـ

بتحقيق العالمين الجليلين الأستاذين

عبد السلام محمد هارون من مصر و أحمد عبد الغفور عطار من مكة

أصح معجم عربي مطبوع ، مصدر بكلمة نقية لناشره الأديب العالم الأستاذ الشيخ محمد سرور الصبان يمتاز برد مئات الكلمات إلى أصولها الصحيحة وتعريف كثير من المصطلحات العلمية والفنية والأدبية والفلسفية التعريف العلمي الدقيق الذي انتهى إليه العصر الحديث ، وفيه إشارة إلى المعرب والدخيل ولغة العوام (العامية) في الحجاز ونجد ومصر ، وتصحيح أوهام كبار علماء اللغة مثل الأزهري والأصمعي والجوهري وغيرهم ، وتصويب كثير من الشعر المستشهد به ونسبته ، كما أن فيه تحقيقا لكثير من الأعلام والمواضع والقبائل وضبطا لجميع المواد اللغوية ضبطا محكما . ولقد اعتمد المحققان أكثر من ثلاثين منهجا علميا ، وأكثر من ثلاثمائة كتاب من أعظم المراجع العربية والأفرنجية ، بينها أكثر من خمسين مخطوطة من نوادر المخطوطات .

والكتاب مذيل بالكثير من الفهارس كالفهارس اللغوية لمواد الأصل والألفاظ الفارسية والأوروبية والعربية والهندية والكلمات الملحونة وكفهارس مسائل العربية والأشعار والأرجاز والأمثال والأعلام والقبائل والطوائف والبلدان والمواضع والمراجع

إخراج أنيق على ورق فاخر في ٣ مجلدات عدد صفحاتها ١٤٥٦ صفحة

ثمن النسخة كاملة ٣ جنيهات و ٥٠٠ مليم

يطلب من دار المعارف بمصر

المركز الرئيسي ٥ شارع سيبرو بالقاهرة تليفون رقم ٤٩٨٦٨
فرع الفجالة ٩ شارع كامل صدقي باشا بالقاهرة تليفون رقم ٤٩٨٦٦
فرع الإسكندرية ٢ ميدان محمد علي بالإسكندرية تليفون رقم ٢٣٥٨٨

س . ت . ٥٢١٢١